

جامعة الجبالي بونعامة – خميس مليانة –
كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية
قسم العلوم الاجتماعية

مقياس الانثربولوجيا الثقافية

الأستاذة : محامدية إيمان

المحاضرة الثانية : مجالات و مكونات الأنثروبولوجيا الثقافية:

1- الثقافة:

أثبتت الدراسات السوسولوجية والسيكولوجية والأنثروبولوجية، أن الطفل الرضيع العاجز يأتي إلى هذه الدنيا غير مزود بأية أساليب موروثة للسلوك، ولكنه سرعان ما يطور لنفسه خلال فترة ما بعد الولادة قدرة فائقة على مرونة الاستجابة للظروف المحيطة به، حيث يتحتم عليه أن يتعلم كيف يأكل، وكيف يتكلم، وكيف يمشي، وكيف يؤدي تقريبا جميع الوظائف الضرورية للحياة، ويتم جانب من هذا التعليم من خلال الخبرة الشخصية أو الخاصة، ولكن الجانب الأكبر منه يكون عن طريق تقليد الآخرين الموجودين في بيئته، أو من خلال عمليات التلقين غير المقصود التي يقوم بها الأطفال الأكبر منه والبالغين. وعلى الرغم من أن هذا التعليم يتم بسرعة مذهلة عند الأطفال الرضع، والأطفال الصغار، إلا أنه يظل مستمرا طوال حياة الإنسان، حيث يؤدي الفرد باستمرار أدوار جديدة، ويكتسب مكانات مختلفة، كأن يكون الإنسان طبيبا، وزوجا، وابنا وزعيم حزب سياسي، وعضوا في نقابة مهنية وعجوزا طاعنا في السن... الخ. كل هذه الأدوار تتطلب منه تعلم ضروب جديدة من السلوك، فالإنسان إذن يتعرض لعملية تعلم لا تتوقف، تستهدف تزويده بمختلف أساليب الحياة الملائمة للمجتمع الذي ولد وتربى فيه، من هنا يدل مفهوم الثقافة على أساليب السلوك التي تتصف بأنها غير موروثة، وإنما تكتسب عن طريق التعلم¹.

إن التعريف الأنثروبولوجي للثقافة يعتبر أكثر شمولاً بكثير من معنى الكلمة كما تستخدم في الحياة العامة، حيث يعتقد الكثير من الناس أن الثقافة مرادفة لارتفاع مستوى كفاية الفرد في تخصصه أو تعليمه، وهكذا فإن الفرد المثقف هو ذلك الشخص الذي استطاع أن يصل إلى درجة التمكن في بعض مجالات المعرفة، وهي عادة: الفن، والموسيقى، والأدب، وهو كذلك الذي يتميز بأداب سلوكية راقية، أما الأشخاص الذين ليسوا مؤهلين بنفس القدر في هذه الميادين، أو الأشخاص الذين اكتسبوا آدابهم في الشوارع، وليس في مجتمع "مهذب" فعالبا ما يسمون غير مثقفين.

¹ محمد عبده محجوب، المقدمة في الأنثروبولوجيا، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1987، ص 55.

إن هذا التمييز بين المثقف وغير المثقف، لا يملك أية دلالة من وجهة النظر الأنثروبولوجية، لأن الثقافة ليست مقصورة على مجالات معينة من المعرفة، بل تتضمن كل أساليب السلوك المكتسبة في المجتمع، بما تتضمنه من عادات وتقاليد، وقيم ومعايير، ومعتقدات، وما يصاحبها من تقدم علمي وفني وتكنولوجي.

وعموما يعتبر مفهوم الثقافة من أكثر المفاهيم تعقيدا، وقد كان هذا مدعاة للاختلاف بين العلماء في تعريفها، وتحديد مكوناتها، وخصائصها، ووظائفها، فمن العلماء من استخدمها ليصف سلوك طبقة اجتماعية معينة، واستخدمها البعض الآخر ليعبر عن طاقة المجتمع على الخلق والإبداع، واستخدمها فريق ثالث للتعبير على مستوى تعليمي أو ثقافي معين، ومن العلماء من اعتبر مفهوم الثقافة مرادفا لمفهوم الحضارة، ومنهم من اعتبره مختلفا عنه، ومنهم من يعبر به عن العناصر المادية والمعنوية القائمة في المجتمع، ومنهم من يعبر به عن العناصر المعنوية فقط.

وبناء على ما سبق، نجد أنه من العسير أن نعتمد على تعريف واحد للثقافة، ونرى أن نقدم في هذا الصدد مجموعة من التعاريف التي اعتمدها علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا، هدفنا من ذلك تسليط الضوء ما أمكن على ماهية الثقافة.

*** تعريفها:** اختلف علماء الأنثروبولوجيا في تحديدهم لمفهوم الثقافة، وقد قام "كروبر وكلاكهون" عام 1915 بحصر أكثر من 160 تعريفا مختلفا للثقافة، ولاشك أن هذه التعريفات قد زادت في القرن الحالي نظرا لتعاظم الاهتمام بالدراسات الأنثروبولوجية الحقلية¹.

إذا عدنا لمفهوم الثقافة في المعاجم العربية، نجد أنها أتت من الأصل اللغوي (تقف)، والتي تعني صار حاذقا فطنا، وتقف الإنسان أدبه وهذبه وعلمه، فكلمة ثقافة عربية أصلية، ولفظة قرآنية، يقول الله تعالى: (فإما تتقفهم في الحرب):² وهي تعني لغويا الفهم والإدراك والحدق والمهارة، وقد نحتت كلمة ثقافة، وأصبح القصد منها العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحدق فيها.

¹ نفس المرجع ، ص 56.

² القرآن الكريم ، سورة الانفال ، الآية 57.

لكن إذا تأملنا الكتابات الأنثروبولوجية، فإننا نجدها تستخدم كلمة ثقافة بمعنى أوسع، بحيث تشمل كل إنجازات العقل البشري، بل وكل ما يصدر عن الإنسان من قول أو فعل أو فكر، وكذلك كل ما اكتسبه من عادات وتقاليد وأساليب للسلوك، وقيم تسود في المجتمع الذي يعيش فيه، وهذا المعنى أوسع بكثير مما جاء في المعاجم العربية¹.

وفي نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كان هناك شبه اتفاق بين العلماء على الأخذ بالتعريف الشهير الذي وضعه العالم البريطاني: "إدوارد بيرنت تايلور" (E.B.Tylor) (1871)، وافتتح به كتابه الشهير "الثقافة البدائية" ويقول فيه: الثقافة أو الحضارة، بمعناها الإثنوغرافي الواسع، هي ذلك الكل المركب، الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف، وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع".

لقد كان التردد عند "تايلور" بين كلمتين "ثقافة" و"حضارة" سمة من سمات سياق تلك الفترة، وإذا كان "تايلور" قد فضل في النهاية استخدام كلمة "ثقافة"، فذلك لأنه فهم أن كلمة "حضارة" تفقد طابعها كمفهوم فاعل حينما نطبقها على المجتمعات البدائية، بسبب أصلها اللغوي الذي يرتبط بنشأة المدن، وبسبب المعنى الذي اكتسبه في العلوم التاريخية، حيث تدل فيها على المنجزات المادية التي كان تطورها ضعيفا في تلك المجتمعات.

ويعود "تايلور" في موضع آخر من الكتاب إلى تأكيد أن الثقافة تشتمل على الأشياء مثل الفأس والقوس والرمح وما إلى ذلك، وكذلك على الفنون العملية مثل صيد السمك، وإشعال النار، وصيد الحيوانات البرية وصناعة الحراب... الخ².

وعلى الرغم من أن هذا التعريف يقتصر على عرض محتويات الثقافة، بحيث إذا استثنينا كلمة "كل" لتمزق وتبعثر هذا المضمون الذي رصّه دون ما تنظيم أو تنسيق. إلا أن علماء الأنثروبولوجيا يجمعون على جودة هذا التعريف باعتباره جامعا لعدد من خصائص الثقافة المادية واللامادية، مما منحه القوة في الاستمرار والانتشار.

¹ طوني بينيت و اخرون ، مفاتيح اصطلاحية جديدة (معجم مصطلحات الثقافة و المجتمع) ، ترجمة سعيد الغانمي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، لبنان ، 2010، ص 200.

² روبرت أونجر ، الثقافة من منظور دارويني وضع مبحث الميمات كعلم ، ترجمة شوقي جلال ، المجلس الاعلى للثقافة ، 2005، ص 40.

وترى "دوروثي لي" (Dorothy lee) أن الثقافة "نسق من الرموز بواسطتها يعطي الأفراد معنى لكل ما هو موجود حولهم، فالسلوك الإنساني كما تحدده الثقافة نسق يربط الفرد بعالمه سواء أكان ذلك العالم هو المجتمع أو الطبيعة أو الكون المتعارف عليه أو الحقيقة المطلقة، وأن سلوك الفرد في أي موقف اجتماعي ما هو إلا تعبير عن هذه العلاقة، فالإطار الثقافي لأي مجتمع يشكل تصرفات أفراده ومعارفهم وتفكيرهم وتفسيرهم لكل ما يدور حولهم، وبذلك تصنع الثقافة القوانين المنطقية والمبادئ الفكرية والحدود الثابتة، فتقدم لأفرادها الدليل الذي يرشدكم في تفسير كل ما هو موجود في مجتمعهم ويوجههم إلى طرق وأساليب العمل التي تمكنهم من القيام بدورهم في المجتمع في حدود إمكانياتهم"¹. ومن هنا تتضح أهمية الثقافة في تزويد الفرد بالمعرفة، وطرق التفكير، وأساليب العمل، وأنماط السلوك المختلفة، والمعتقدات وطرق التعبير عن المشاعر، والآلات والمعدات والأدوات التي تساعده على فهم العالم من حوله وتفسيره والسيطرة عليه، والتحكم فيه في حدود إمكانياته، كما أنها تسهل عملية التفاعل الاجتماعي بين الأفراد، فالفرد في أي موقف اجتماعي يتصرف بناء على معرفته بتوقعات الآخرين من حوله، وتفسيره الشخصي للموقف ودوره الاجتماعي، ومكانته الاجتماعية في علاقته بالآخرين الذين يتفاعل معهم.

أما "كلهون" (Kluckhon) فقد عرف الثقافة بأنها "وسائل الحياة المختلفة التي توصل إليها الإنسان عبر تاريخه الطويل، السافر منها والضمني، العقلي واللاعقلي، والتي توجه سلوك الناس في وقت معين وترشد خطواتهم في مجتمعهم."². ويتضمن هذا التعريف الجوانب المعنوية والمادية للثقافة. وأيضاً إشارة واضحة إلى زمن محدد، لأن الثقافة لا تبقى على حالها، وإنما تتغير بتغير العصور والأزمنة.

ويعرفها "كلباتريك" (Kilpatrick) بقوله: "الثقافة هي كل ما صنعه يد الإنسان وعقله من الأشياء، ومن مظاهر في البيئة الاجتماعية، أي كل ما اخترعه الإنسان أو ما اكتشفه وكان له دور في العملية الاجتماعية." ويعني هذا التعريف أن الثقافة تشمل: اللغة والعادات والتقاليد والمؤسسات الاجتماعية والمستويات والمفاهيم والأفكار والمعتقدات إلى

¹ دلال ملحق استثنائي، التغير الاجتماعي والثقافي، دار وائل للنشر و التوزيع، عمان، ط1، 2004، ص 227.

² نفس المرجع، ص 229.

غير ذلك مما نجده في البيئة الاجتماعية من صنع الإنسان، وقد توارثه جيل بعد جيل، وبمعنى آخر يرى "كلباتريك" أن للثقافة جانبين هما: الجانب المادي، والجانب غير المادي. أما "فيرث" (Firth) فإنه يقول: "إذا نظرنا إلى المجتمع على أنه يمثل مجموعة من الأفراد فإن الثقافة هي محتوى هذه العلاقات، وإذا كان المجتمع يهتم بالعنصر الإنساني، وبتجمع الأفراد، والعلاقات المتبادلة بينهم، فإن الثقافة تعني المظاهر التراكمية المادية واللامادية التي يتوارثها الناس، ويستخدمونها ويتناقلونها، وللثقافة محتوى فكري ينظم الأفعال الإنسانية، وهي من وجهة النظر السلوكية سلوك متعلم، أو مكتسب اجتماعيا، وهي فوق كل ذلك ضرورية كحافز للفعل". مما يعني أن الثقافة في جوهرها هي شكل الحياة الإنسانية كما يرسمها البشر الذين يعيشون تلك الحياة بما فيها من معتقدات وأساليب للفكر وغيرها. وأن الثقافة هي الحياة التي يرسمها الناس في زمان معين ومكان معين، والقيمة المهمة التي تعيننا هنا، هي قابلية تلك الثقافة للتعلم.

في نفس السياق يقول "إليوت": "إن ما أعنيه بالثقافة هو ما يعنيه الأنثروبولوجيون أي طريقة حياة شعب معين، يعيش أفراده في مكان واحد، وهذه الثقافة تظهر في فنونهم، وفي نظامهم الاجتماعي، وفي عاداتهم وأعرافهم ودينهم، إلا أنه لا يمكن اعتبار مجموع هذه الأمور ثقافة، لأنها لا تمثل إلا أجزاء يمكن استخدامها في تشريح الثقافة"¹. فكما أن الإنسان هو أكثر من مجموع الأفراد المختلفة المكونة لجسمه، فكذلك الثقافة هي أكثر من مجموع فنونها وأعرافها ومعتقداتها الدينية، فهذه الأشياء كلها يؤثر بعضها في بعض، وهو ما يعبر عنه "تايلور" "بالكل المركب". فعناصر الثقافة المادية واللامادية متفاعلة متداخلة متبادلة التأثير والتأثر، مما يخلق في النهاية وحدة متميزة، ولذلك نقول بأن كل ثقافة هي نموذج فريد من نوعه، لا يمكن أن يتكرر في نطاق الزمان والمكان بنفس الشروط والموصفات².

ويعرف المفكر الجزائري "مالك بن نبي" الثقافة في كتابه "مشكلة الثقافة" فيقول: "هي مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته لتصبح

¹ محمد السويدي، مقاهيم علم الاجتماع الثقافي ومصطلحاته، المؤسسة التونسية الوطنية للكتاب، تونس، 1992، ص

66.

² ميشيل توماسيللو، الثقافة والمعرفة البشرية، منتدى الازبكية، الكويت، 1990، ص 200.

لا شعوريا تلك العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه، فهي على هذا، المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته"¹. وهو بذلك يشير إلى إحدى وظائف الثقافة الهامة، وهي تشكيل الشخصية الفردية، ومساعدتها على التكيف مع المحيط الاجتماعي العام.

وقد تناول " ميريل " مفهوم الثقافة في كتابه " المجتمع والثقافة " بحيث جاء هذا المفهوم ليعكس على نحو كبير خصائص الثقافة بوجه عام، حيث يذهب إلى أن²: الثقافة نتاج إنساني ينشأ عن التفاعل الاجتماعي.

1- الثقافة تقدم الأنماط الاجتماعية المقبولة والتي تقابل احتياجات الإنسان البيولوجية والاجتماعية.

2- الثقافة متراكمة لأنها تنتقل من جيل إلى جيل.

3- الثقافة مغزاها بالنسبة للناس، نظرا لما تنسم به من الصفات الرمزية.

4- يكتسب الفرد الثقافة من خلال فترة نموه في مجتمعه الخاص.

5- الثقافة تحدد شخصية الفرد بصورة أساسية.

6- تعتمد الثقافة في وجودها على الأداء الوظيفي المستمر للمجتمع، ولكنها مستقلة عن أي فرد أو جماعة.

وجملة القول فإن الثقافة هي الحياة، إنها نمط المعتقدات والأفكار والرموز والتجارب التي نتجت عن التفاعل بين الأفراد وبين النظم الاجتماعية، وهي تتكامل تكاملا وظيفيا وتعمل على تكيف الأفراد مع مواقف الجوع، والتوترات الجنسية، وهي تشكل الشخصيات في المجتمع بحيث تتشابه الشخصيات في المجتمع الواحد، وإذا شئنا أن نوجز ما قلناه، فإن مصطلح "ثقافة" كما يستخدمه عالم الأنثروبولوجيا إنما يشير إلى المعاني التالية³: للدلالة على أساليب الحياة أو "مخططات الحياة" المكتسبة بالتعلم والشائعة في وقت معين بين البشر جميعا.

¹ مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الجهاد ، القاهرة ، ط1 ، 1959 ، ص 73.

² محمد السويدي ، مرجع سابق ، ص 65.66.

³ محمد الجوهري و آخرون ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية قضايا الموضوع و المنهج ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، 2006 ، ص 48.

1- للدلالة على أساليب الحياة الخاصة بمجموعة من المجتمعات التي يوجد بينها قدر من التفاعل.

2- للدلالة على أساليب السلوك الخاصة بشريحة أو شرائح معينة داخل مجتمع كبير على درجة من التنظيم المعقد.

المحاضرة الثالثة:

* خصائص الثقافة

1- الثقافة إنسانية: أي خاصة بالإنسان وحده دون سائر الحيوانات.

2- الثقافة مستقلة: تتميز الثقافة باستقلالها عن الأفراد الذين يحملونها ويمارسونها في حياتهم اليومية، فالفرد يولد صفحة بيضاء، فيجد التراث الثقافي لمجتمعه مشكلا جاهزا، ويقوم الفرد بتشربه واستدماجه عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية.

3- الثقافة مستمرة: يلاحظ أن السمات الثقافية خاصة العادات والتقاليد، والخرافات والأساطير لها قدرة كبيرة على الانتقال عبر الزمن، وعلى الاحتفاظ بكيانها لعدة أجيال، وبرغم أن المجتمع قد يتعرض لعوامل تغير مفاجئ أو تدريجي تؤثر في ظروفه العامة إلا أنه هناك من السمات الثقافية ما يتمكن من البقاء والاستمرار، بل إن بعض ملامح الثقافة ينتقل بالفعل من مجتمع إلى آخر بفعل وسائل الاتصال الثقافي المختلفة.

4- الثقافة متغيرة: يصيب التغير الثقافي جميع جوانب الثقافة المادية واللامادية، ويحدث التغير الثقافي بفضل ما تضيفه الأجيال اللاحقة من خبرات وأدوات وقيم وأنماط سلوك، أو بفضل ما تستبعده وتحذفه من أساليب وأفكار وأدوات نتيجة لأنها لم تعد مسايرة لروح العصر، ويكون التغير في الثقافة المادية أسرع منه في الثقافة اللامادية، ويرجع ذلك لكون العناصر المادية عناصر محسوسة ملموسة، ولها منافع ومحاسن مباشرة، ولا ترتبط بالعواطف والأحاسيس، بعكس الحال في العناصر اللامادية¹.

5- الثقافة انتقائية: إن انتقال الثقافة يتم غالبا بطريقة واعية وانتقائية، بحيث ينتقي

الجيل الذي يتلقى عناصر الثقافة بعضها، ويستبعد البعض الآخر طبقا لظروفه وحاجاته.

¹ مالك ابن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر المعاصر، لبنان، ط3، 2000، ص 125.

6- الثقافة معقدة: تمتاز الثقافة بأنها كل معقد لاشتمالها على عدد كبير من السمات والملامح الثقافية، ويرجع ذلك التعقيد في الثقافة إلى تراكمها خلال عصور طويلة من الزمن، وإلى استعارة كثير من السمات الثقافية من خارج المجتمع نفسه، إذ يصعب كثيرا الفصل بين العادات والتقاليد والقيم والأعراف، أو بين العلوم والفنون والتكنولوجيا¹.

7- الثقافة تشبع حاجات الأفراد: تركز الثقافة لإشباع احتياجات الإنسان المستمرة والمتغيرة بمرور الوقت، فالإنسان يسعى دائما إلى إشباع غرائزه وانفعالاته ودوافعه علاوة على أن له مطالب أخرى من الثقافة وعناصرها سواء كانت مادية أو لا مادية كالمأكل والمشرب والملبس والمسكن والتعليم والتنشئة والرفاهية، والتي تستلزم إشباعها بصورة أساسية.

8- الثقافة قادرة على التكيف: تمتاز الثقافة بخاصية التكيف مع الظروف البيئية المختلفة فاستعارة سمات ثقافية معينة، وانتقالها إلى مجتمعات أخرى تجعلها في وضع يجب أن تتلاءم فيه مع نوعية العادات والتقاليد والوضع الاجتماعي والاقتصادي الذي انتقلت إليه.

9- الثقافة متكاملة: حيث تجمع الثقافة في عناصرها بين مسائل تتصل بالروح والفكر والوجدان، كالمعتقدات الدينية والقيم الأخلاقية، وبين مسائل تتصل بحاجات الجسد من طعام وشراب وكساء ومسكن وغيرها، وهي كلها متكاملة لأن الإنسان من حيث هو إنسان متعدد المطالب والحاجات، فمنها ما هو بيولوجي، ومنها ما هو سيكولوجي، ومنها ما هو اجتماعي.

10- الثقافة ضمنية أو معلنة: لأن بعض دلالاتها لا تفهم إلا من خلال السياق الذي تأتي فيه، وهي متخفية في تلك الجوانب التي تشمل عالم الروح وعالم الطبيعة وما ينطوي تحتها، وعلنية الثقافة تظهر في سلوك الأفراد وتصرفاتهم وأحاديثهم، كما تظهر في الأمور المادية كالاختراعات والاكتشافات والأجهزة الحديثة أو المنتجات الصناعية وغيرها.

11- الثقافة متنوعة المضمون: إذ تختلف الثقافات في مضمونها بدرجة كبيرة قد تصل أحيانا إلى درجة التناقض، والمثال على ذلك أن بعض المجتمعات تسمح بتعدد الزوجات، بينما تعتبره مجتمعات أخرى جريمة يعاقب عليها القانون.

¹ نفس المرجع ، ص 50.

12- الثقافة قابلة للانتشار والنقل: ويتم هذا الانتشار والانتقال بعدة طرق أهمها التعليم، حيث تلعب اللغة دورها الكبير في هذا المجال، وكذلك وسائل الاتصال الحديثة (كالإذاعة والتلفاز والأقمار الصناعية، والصحف، والمجلات... الخ) التي تقوم بتحطيم الحواجز بين الثقافات وتعمل على النشر الثقافي¹.

13- الثقافة مكتسبة: بما أن الثقافة تمثل نماذج السلوك المتعلمة فإن الإنسان يتعلمها من الجماعة أو الجماعات التي ينتمي إليها عن طريق عمليتي التلقين والمحاكاة فتكتسب الثقافة عن طريق التعلم، الذي يحتاج بدوره إلى التفاعل الاجتماعي الذي يوفره المجتمع الإنساني لأفراده.

14- الثقافة مشتركة بين أفراد المجتمع: إن الثقافة بمعناها الاجتماعي تكون مشتركة بين أفراد المجتمع الواحد، ولا يمكن أن يمتلكها فرد واحد وحتى عدد قليل من الأفراد، فالاختراع إذا لم يستخدم فإنه لن يمثل عنصرا من عناصر الثقافة. والثقافة باعتبارها مشتركة بين أفراد المجتمع تعني أنها متفق عليها ومستخدمة في المجتمع، وقد تكون هذه العناصر الثقافية مشتركة بين أفراد المجتمع ككل ولها صفة العمومية، ولذلك تسمى بالعموميات الثقافية، أو مشتركة بين فئات معينة في المجتمع مثل الجماعات المهنية أو الطبقية أو المعرفية، وتسمى بالخصوصيات الثقافية.

المحاضرة الرابعة:

*** وظائف الثقافة:** تؤدي الثقافة داخل المجتمع عددا من الوظائف متمثلة فيما تقدمه للفرد من طرق ووسائل لإشباع حاجاته ومطالبه البيولوجية والنفسية والاجتماعية، فما تقدمه الثقافة للفرد متعدد الجوانب، عميق الأهمية في حياته، ويمكننا تلخيص هذه الوظائف فيما يلي:

1- تسهم الثقافة في المحافظة على الوظائف البيولوجية للكائن البشري عن طريق توفير حاجاته إلى الطعام والشراب والدفء والماوى والإشباع النفسي والتناسل والحب والتشجيع.

¹ نفس المرجع ، ص 51.

2- تؤثر الثقافة في حياة الناس وتوجه أفعالهم، وليس أدل على ذلك من اختلاف سلوك الناس في ثقافة عن ثقافة أخرى من حيث المعتقدات وأساليب العمل، فالإنسان يولد بلا لغة، ولا قيم، ولا أفكار، ولا تعليم، وهو يفتقر إلى المال، والحب والعلاقات العائلية، وهو يولد بلا حقوق وواجبات، وهو في أمس الحاجة إلى هذه الأمور، ولكنه يتشرب هذه العناصر الثقافية ويكتسبها من المجتمع الذي يعيش فيه¹.

3- لا تقتصر الثقافة على تزويد الأفراد بطرق إشباع حاجاتهم، بل تطور لهم حاجات جديدة، فرغبة الإنسان في التدخين تكون في بعض الأحيان، أقوى من حاجته إلى الطعام والشراب، كما أن رغبة الفرد في النجاح والثروة قد تكون في بعض الثقافات، أقوى من رغبته الجنسية.

4- يجد أفراد الجماعة في ثقافتهم تفسيرات عن أصل الإنسان والكون والظواهر التي يتعرضون لها، كالزلازل، والعواصف والأمطار وغيرها، ولكن قد تكون هذه التفسيرات المقنعة من النوع الخرافي (إله الريح، إله الحب، الأرض على قرن ثور... الخ)، وقد تكون على أساس علمي تجريبي (الماء = الأكسجين + الهيدروجين) أو (الأرض كروية الشكل وتدور حول نفسها)، وفي كلتا الحالتين تجيب الثقافة على تساؤلات أفرادها بطريقة أو بأخرى.

5- تحدد الثقافة مختلف المواقف وتعرفها لأعضائها، كما تزودهم بمعاني الأشياء والأحداث، ولهذا يستمد أفراد الثقافة الواحدة من ثقافتهم عددا من المفاهيم الأساسية لكي يتمكنوا في ضوءها من تحديد معنى الحياة وهدف الوجود.

6- تكسب الثقافة أفراد الجماعة الضمير الذي ينبثق من الإجماع، ذلك أن استبطان قيم الجماعة ومعاييرها يؤدي في العادة إلى امتزاجها في شخصية كل واحد من أفرادها، الأمر الذي يؤدي إلى شعور كل واحد منهم بالذنب والندم عند مخالفة هذه القيم.

7- تعطي الثقافة لأفراد الجماعة الواحدة شعورا بالانتماء، لأنها تربط أعضائها في جماعة واحدة يشعرون بالاندماج فيها، ويظهر هذا جليا عندما يتقابل شخصان من ثقافتين مختلفتين فيحس كل منهما بمدى انتمائه وتعلقه بثقافته.

¹ نفس المرجع ، ص 52.

8- تساعد الثقافة أفراد الجماعة على التكيف مع مكاناتهم في المجتمع، فهي التي تقدم لهم الوسائل الضرورية للقيام بأدوارهم، ولذلك كانت الثقافة تربة خصبة لنمو وترعرع الشخصية وازدهارها.

9- تضع الثقافة المركبة أو الغنية أمام الفرد احتمالات كثيرة، فقد يجد نفسه مضطرا لمواجهة عدد من الصعوبات، وقد يجد أمامه أيضا عددا كبيرا من البدائل الأخرى أو الفرص، ولهذا يقال بأن شخصية الفرد في الثقافة البسيطة تكون أكثر وضوحا من شخصية الفرد في الثقافة المعقدة¹.

وتصنف "دلال ملحس" مجمل هذه الوظائف في ثلاث فئات²:

* **الوظيفة الاجتماعية:** وتتمثل فيما يلي:

1- توحيد الناس في مجتمع خاص بهم، وذلك من خلال تراكيب اللغة والرموز والمعتقدات والقيم وغيرها، حيث تبدو الثقافة كعالم ذهني وأخلاقي ورمزي يشترك فيه أعضاء المجتمع، وبفضله يتسنى لهم التواصل وتحقيق الانتماء إلى كيان واحد.

2- تأطير الناس من خلال التراكيب المؤسسية الاجتماعية (الحقوقية والقرابية والسكنية والمدرسة والمهن، والهيئات المختلفة) ومن خلال هذه التراكيب تنسج العلاقات الاجتماعية وتتحقق المصالح.

3- المحافظة على المجتمع وضمان استمراريته وتطوره، إذ من المعلوم أن لا مجتمع دون ثقافة ولا ثقافة دون مجتمع، كما أن استمرار الحياة في المجتمع هو استمرار لتكيف الفرد مع بيئته وبخاصة الثقافية منها.

4- توفير مجموعة من القوانين والنظم التي تتيح التعاون بين أفراد الثقافة الواحدة، والاستجابة لمواقف معينة استجابة موحدة لا تعتربها التفرقة.

* **الوظيفة الفردية:** وتتمثل فيما يلي:

¹ ديبس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة منير السعيداني، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007، ص30.

² دلال محسن استيتيه، مرجع سابق، ص ص 237.238.

1- تكوين أو إنتاج الشخصية الثقافية للفرد، القدرة على تمثل ثقافة مجتمعا وفهمها واستيعابها، ما يساعده على التكيف مع مجتمعه، وإقامة علاقات اجتماعية طيبة مع أفراد داخل الثقافة الواحدة.

2- حماية الإنسان من المخاطر والكوارث الطبيعية والبيئية، والثقافة هي أداة الإنسان في حل مشكلاته المختلفة التي يواجهها في إطار البيئة، وبالتالي فإن لكل عنصر من عناصرها غاية ووظيفة محددة.

3- مساعدة الفرد في التنبؤ بالأحداث المتوقعة، والمواقف الاجتماعية المحتملة، والتنبؤ بسلوك الفرد والجماعة في مواقف معينة، ومعنى هذا أننا إذا عرفنا الأنماط الثقافية التي تسود الجماعة التي ينتمي إليها الفرد، أمكننا أن نتنبأ بأنه سيسلك بحسب هذه الأنماط الثقافية في معظم المواقف التي يواجهها.

*** الوظيفة النفسية:** وهي وظيفة "القولبة" لأفراد المجتمع، أي اكتساب هؤلاء أنماط السلوك وأساليب التفكير والمعرفة وقنوات التعبير عن العواطف والأحاسيس ووسائل إشباع الحاجات الفسيولوجية أو البيولوجية والروحية. وهو ما أصبح يعرف بمصطلح "التدماج الاجتماعي" أو "التنشئة الاجتماعية". وغاية هذه الوظيفة مساعدة الأفراد على التكيف مع الثقافة واكتسابهم لهويتهم الاجتماعية الثقافية. ومن هنا تكتسب أهميتها الكبرى.

المحاضرة الخامسة:

*** مكونات الثقافة:** يرى علماء الأنثروبولوجيا بأن العناصر التي تتكون منها أية ثقافة مختلفة ومتباينة وقد عرفت هذه العناصر عدة تصنيفات، أشهرها ذلك الذي قدمه "رالف لنتون" والذي يقسم فيه الثقافة إلى: ¹

1- **العموميات الثقافية:** وهي وجوه ثقافية يشترك فيها جميع أفراد المجتمع، وتعد بمثابة الملامح الرئيسية المحددة لثقافة مجتمع ما، وهي التي تميزها عن غيرها من الثقافات. والعموميات الثقافية غالبا ما تكون أكثر عناصر الثقافة استقرارا، ومن هذه العموميات: اللغة، واللباس الشعبي، وطريقة الأكل، وأسلوب التحية والاستقبال والوداع، وطرز المباني وأسلوب الاحتفالات في الأفراح، والتعبير عن الأحزان وغيرها، وبذلك

¹ نفس المرجع ، ص 242.

تشكل العموميات الثقافية القاسم المشترك بين أبناء المجتمع الواحد، وتكون عنصر تجميع وتأليف بينهم، وتؤدي إلى ظهور اهتمامات مشتركة تجمعهم، وتولد بينهم شعورا بالتضامن وبالمصير المشترك، واللغة العربية مثلا هي من أهم العموميات الثقافية التي يمتاز بها المجتمع العربي عن غيره من المجتمعات.

2- الخصوصيات الثقافية: توجد داخل المجتمع نفسه مجموعة من الثقافات الفرعية (الخصوصية) التي تميز قطاعات رئيسية في المجتمع، وهي جزء من الثقافة الكلية للمجتمع، ولكنها تختلف عنها في بعض السمات والمظاهر والمستويات، لذا فإن الثقافة الفرعية (الخصوصية) هي ثقافة قطاع متميز من المجتمع، لها ما للمجتمع من خصائص بالإضافة إلى إنفرادها بخصائص أخرى، وبالتالي فإن الخصوصية الثقافية هي ملامح وخصائص ثقافية تتميز بها فئة معينة عن غيرها من الفئات في المجتمع الواحد.

وهناك عدة أنواع من الخصوصيات الثقافية، نذكر منها:

* **الخصوصيات العمرية:** فكل جماعة عمرية لها خصوصياتها الثقافية التي تتميز بها عن غيرها من الأعمار، فالأطفال لهم ثقافة خاصة ومختلفة عن ثقافة الشباب، وللشباب ثقافة خاصة ومختلفة عن ثقافة الكبار.

* **الخصوصيات المهنية:** فكل جماعة مهنية خصوصيتها الثقافية التي تتميز بها عن غيرها، فالأطباء مثلا لهم ثقافة خاصة بهم، وللمهندسين ثقافة خاصة بهم، وللتجار ثقافة خاصة بهم... الخ.

* **الخصوصيات الجنسية:** للذكور ثقافة خاصة بهم، وللإناث ثقافة خاصة بهن، يترتب عليها خصوصيات في التعامل، وفي اللباس، وفي وسائل التسلية، وفي الأدوار التي يلعبها كل منهما في المجتمع.

* **الخصوصيات الطبقيّة:** لكل طبقة من طبقات المجتمع خصوصيتها الثقافية الخاصة بها، فخصوصيات الطبقة الأرستقراطية تختلف عن خصوصيات الطبقة الوسطى أو الدنيا.

* **الخصوصيات العرقية:** لكل عرق من الأعراق عناصره الثقافية التي تميزه عن الأعراق الأخرى، فخصوصيات الشركس الثقافية تختلف مثلا عن خصوصيات الشيشان، وللأرمن خصوصيات ثقافية، أيضا تميزهم عن غيرهم من الأعراق.

*** الخصوصيات العقائدية:** لكل عقيدة عناصرها الثقافية الخاصة بها، والتي تميزها عن غيرها من العقائد، فخصوصيات العقيدة الإسلامية تختلف عن خصوصيات العقيدة المسيحية أو اليهودية.

*** الخصوصيات التعليمية:** لكل مرحلة من المراحل التعليمية عناصرها الثقافية الخاصة بها، والتي تميزها عن غيرها من المراحل، ولكل نوع من أنواع التعليم (الأكاديمي أو المهني أو الفني) عناصره الثقافية التي تختلف عن عناصر غيره من أنواع التعليم، وللتعليم الخاص خصوصياته الثقافية التي تميزه عن التعليم العام. (الحكومي).

3- المتغيرات (البدائل) الثقافية: وهي ملامح ثقافية لم تستقر بعد، وقد تظهر في المجتمع بفعل رواد التغيير، أو تكون وافدة على المجتمع من الثقافات الأخرى التي يتم الاحتكاك بها، وقد تجد هذه المتغيرات أو البدائل البيئة المناسبة لتنبت وتترعرع في المجتمع. إلا أنها لا تأخذ دورها كخصوصيات ثقافية ولا كعموميات، فهي ليست من العموميات بحيث يشترك فيها جميع أفراد المجتمع، وليست من الخصوصيات بحيث يشترك فيها فئة من أفراد المجتمع، وقد تتحول هذه المتغيرات أو البدائل على مر الزمن إلى خصوصيات ثقافية أو إلى عموميات، ومثال ذلك اقتصار استعمال الحواسيب في الشركات الكبرى في بداية الأمر، ومع مرور الزمن، وبعد أن أثبتت الحواسيب جدواها وأهميتها في الحياة العامة والخاصة، شاع استعمالها في البيوت والمكاتب والمدارس، وتحول استعمالها بالتالي إلى عمومية ثقافية. وجدير بالذكر أن بعض هذه المتغيرات أو البدائل الثقافية قد تجد مقاومة شديدة من قبل المحافظين في المجتمع، إلا أن صفتها التجديدية أو الابتكارية تجعلها تتغلب على هذه المقاومة وتتجذر في الثقافة، وتصبح جزءاً لا يتجزأ منها، وقد يختلف بعضها الآخر لعدم ملاءمته للمجتمع وطبيعته.

بالإضافة إلى التقسيم السابق للعناصر الثقافية، هناك تقسيمات أخرى في هذا المجال، فقد قسم "أوجبرن ونيمكوف" الثقافة إلى:

*** ثقافة مادية:** وهي تشمل كل ما يصنعه الإنسان في حياته العامة، وكل ما ينتجه العقل البشري من أشياء ملموسة مثل: الآلات، والأسلحة، والأثاث، والسيارات، والملابس

والمجوهرات، والبناء، والطرق، والجسور، والمحاصيل الزراعية، ومصاريف الري، أي ما هو مادي فيزيائي، واستخدمه الإنسان.

* **ثقافة لا مادية:** وهي تشمل أنماط السلوك التي تتمثل في العادات والتقاليد، والتي تعبر عن المثل والقيم والأفكار والمعتقدات وكذلك الكلمات التي يستعملها الإنسان.

وسار على نفس المنهج "سوروكن" الذي قسم الثقافة إلى دوائر تتصل بالحضارة المادية، كاستعمال الآلات والمصنوعات، والدوائر المتصلة بالحضارة اللامادية، وذلك كظهور وزوال بعض العقائد والطوائف الدينية أو بعض النظم السياسية.

كما قسم بعض العلماء الثقافة إلى نمطين:

✓ النمط المثالي ويتكون من الفكر والشعور في الأنماط السلوكية التي يجب أن يسلكها الفرد بالفعل.

✓ النمط الواقعي ويبدو في أشكال السلوك والعلاقات التي تحدث بين الأفراد في الواقع. ومثال ذلك، أنه من المفروض ألا يجلس الرجل في المركبات العامة بينما تقف المرأة، ولكن كثيرا من الرجال لا يظهرون هذا السلوك المثالي، إنما يظهرون نمطا سلوكيا معاكسا، يعتبر في مفهوم الثقافة النمط السلوكي الواقعي.

المحاضرة السادسة : عناصر الثقافة¹:

1- اللغة: تدل الأدوات التي خلقها الإنسان منذ آلاف السنين على أنه قد عرف الكلام منذ اللحظة نفسها التي بنى فيها ثقافته البسيطة، وإن وجود أدوات أكثر عددا وتنوعا وتعقيدا عبر التاريخ، يدل على أن هذا التصور كان مستحيلا بدون توفر لغة الكلام، ذلك أنه لا يمكن أن تنتقل خبرة صنع تلك الأدوات من فرد لفرد، ومن جماعة لأخرى، ومن جيل لجيل إلا عن طريق الكلام الذي يعبر بدقة عما يجول في أذهانهم من أفكار. وبناء على ذلك يصدق قول بعض العلماء بأن اللغة قد بدأت عندما بدأت الثقافة، وأخذت تنمو بصورة مستمرة منذ تلك اللحظة.

وتقوم كل لغة على نظام واضح ومحدد من الأصوات الواضحة، بحيث يسهل التمييز بين كل صوت وآخر، وتتكون الكلمات عن طريق الجمع بين تلك الأصوات، وتتجمع

¹ عبد الرزاق جبلي، دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية، دار النهضة العربية، بيروت، 1984، ص ص 97 .87

الكلمات في جمل وفق قواعد محددة، وهذا النظام متوافر في كل لغة سواء كانت لغة مجتمع بدائي، أو مجتمع متقدم.

وتمتلك كل لغة العدد الكافي من المفردات اللازم لسد حاجات الأفراد، ويزيد عدد مفردات لغات المجتمعات المتقدمة عن المجتمعات البدائية، لأن هذا العدد يرتبط بالمستوى الثقافي للمجتمع، ويزيد عدد المفردات نتيجة لتعدد العلاقات الاجتماعية، وزيادة درجة التخصص والمخترعات التي يحتاج التعبير عنها إلى مفردات جديدة، ولهذا فإن عدد المفردات لا يعتمد على طبيعة اللغة، بقدر ما يعتمد على عناصر ثقافية أخرى، كما تتمتع جميع اللغات بنظام واضح للقواعد.

إن قيام مجتمع بدون لغة شيء مستحيل، لأنه في هذه الحالة يكون غير قادر على تنظيم أبسط عمل جماعي، كما يكون عاجزاً عن نقل خبراته وأفكاره البسيطة للآخرين. وبناء على ذلك يمكن القول، أن اللغة تلعب دوراً كبيراً في تكوين الثقافة، مع أنها عنصر من عناصرها، ولكنها أهم هذه العناصر جميعاً، لأنه عن طريقها تنمو الثقافة وتنتقل من جيل إلى آخر.

3- الفن: إن الفن كنسق ثقافي لا تخلو منه أي ثقافة في الحاضر أو الماضي، كما أن مفهومه وعناصره تختلف من ثقافة إلى أخرى لاختلاف قيمة الجمال من مجتمع لآخر. فالشعور بالجمال مرتبط بقيمة الجمال كما يحددها المجتمع. وتقسّم المعاجم ودوائر المعارف الفن إلى فنون عملية وفنون جميلة، إذ تشير الفنون العملية إلى الحرفة أو الصناعة أو النشاط الإنتاجي، أما الفنون الجميلة فهي كل إنتاج للجمال يتجسد في أعمال محددة مثل الرسومات والتماثيل والرقصات والموسيقى. ولا بد أن تتصف تلك الأعمال بالجمال وفق القواعد التي يحددها المجتمع لتلك القيمة. ولقد عنى علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا بالبحث في خصائص الفن البدائي القديم والمعاصر، وقد انتهوا إلى أن هذا الفن المتمثل في الرسومات يعبر عن نزعة مطابقة للطبيعة في أدق صورها، وقد ظل هذا الأسلوب سائداً حتى العصر الحجري الحديث، لتظهر نزعة رمزية اصطلاحية تكتفي في التعبير باستخدام النموذج الهندسي البسيط المتمثل في النمط المستقيم والدائرة، وأن هذا التغيير في الأسلوب

الفني يرجع إلى تحول عميق وعام في المجتمع البشري حيث تم اكتشاف الزراعة والرعي، واخترع الإنسان أدوات الزراعة والنسيج، وظهرت الصناعات اليدوية والحرف المتخصصة والمصنوعات المنزلية، وقد انعكست هذه التحولات على قدرات الإنسان وحواسه وعواطفه، فانتهى ذلك التطابق بين الصورة والواقع، وظهر الأسلوب الهندسي الشكلي الذي يقدم رموزاً للواقع قد تكون قريبة أو بعيدة الشبه عنه، ولقد استمرت هذه الثنائية في الفن حتى يومنا هذا.¹

3- الأفعال الإنسانية: يجمع الباحثون في علم الاجتماع على أن الأفعال الإنسانية تعد بمثابة وحدات الملاحظة الأساسية في الدراسة العلمية للإنسان والثقافة، لأنها تمثل الوحدات الأولية للسلوك، والميكانيزمات الأساسية التي يمكن بواسطتها أن يتكيف الإنسان مع بيئته، فتنشأ عنها أشكال مختلفة للتفاعل الاجتماعي، وكلما استقرت هذه الأشكال وتكررت، تولدت عنها علاقات اجتماعية محددة، تقضي إلى قيام جماعات إنسانية وهذه الأخيرة تنتظم في نظم اجتماعية، يشكل مجموعها المجتمع. فدراسة الأفعال الإنسانية تمكننا من الانتقال من الجزء إلى الكل في نسق استقرائي.

4- الطرائق الشعبية: وتعبر عن مجموعة من العادات التي تأصلت عن طريق التكرار، فهي إذن أنماط متكررة من السلوك، نجمت عن محاولات التكيف من خلال أسلوب المحاولة والخطأ، وبتطورها تصبح أعرافاً لها طبيعتها الإلزامية، والخروج عنها يعد خروجاً عن قوانين المجتمع. ويعتبر "جراهام سمنر" أول من اهتم بدراسة الطرائق الشعبية باعتبارها أفعال اجتماعية متكررة تمارسها الجماعة، أو باعتبارها صوراً للتصرفات التي نلاحظها داخل المجتمع، وهي تمثل في النهاية الطرق المميزة والمشاركة للفعل في المجتمع وتنتقل من جيل لآخر.

5- العرف: إنه عبارة عن طائفة من الأفكار والآراء والمعتقدات التي تنشأ في جو الجماعة، ويمثل مقدساتها ومحرماتها، ويفرض عقاباً صارماً في حالة الاعتداء عليه، لأن المجتمع ينظر إلى الاعتداء على العرف على أنه مصدر خطر على الآخرين. ومن وظائف العرف أنه يحدد الصواب والخطأ، ويعين ما يمكن وصفه بأنه خلقي أو غير خلقي. والعرف

¹ نفس المرجع ، ص 100.

يتغير ببطء شديد، بعكس العادات الشعبية التي تتغير على نحو أسرع. وتعمل العادات الشعبية والعرف كميكانيزمات كافية لحفظ النظام في المجتمعات البدائية، ويندر التفكير في مخالفتها، ولكن المجتمع الحديث، الذي يقوم على تقسيم العمل وما يترتب عليه من تنظيمات اجتماعية متعددة ومعقدة، يسهم في انقسام الناس إلى جماعات وطوائف وطبقات، يعتمد بجانب العرف والعادات الشعبية على القانون الذي يحمي ويعاقب في الوقت نفسه بغرض حفظ النظام¹.

6- القانون والنظم الاجتماعية: ونتيجة لأنه في مثل هذه المجتمعات الحديثة لا تكون للعادات الشعبية والعرف عمومية كما هو الحال في المجتمعات البسيطة، نظرا لأن الثقافة نفسها تنقسم إلى ثقافات فرعية، يحمل كل فرع منها خصائص مميزة، الأمر الذي قد تتعدد معه العادات الشعبية والعرف، حينئذ يصبح القانون بمعناه العام والخاص هو الرابط الوحيد والعام للأفراد الذي يحمل طابع العمومية من ناحية والذي يفرض النظام بطريقة تكاد تكون واحدة في كل نواحي المجتمع من ناحية أخرى.

وتعتبر النظم الاجتماعية أيضا من عناصر الثقافة ومكوناتها الأساسية، وهي عبارة عن تنظيمات تشتمل على عدد من العادات وجوانب متعددة من العرف والقانون، فتندمج جميعا في وحدة للقيام بعدد من الوظائف الاجتماعية. وتتمثل النظم الاجتماعية الرئيسية في الزواج والأسرة والدين والتربية والاقتصاد والسياسية... وتتكامل النظم الاجتماعية وتتساند من حيث البناء والوظيفة، إذ تتصل نظم الدين والأسرة والاقتصاد والسياسة ببعضها البعض.

7- الثقافة والشخصية:

يشارك الحيوان مع الإنسان في كثير من الوظائف، والعمليات العقلية والنفسية، إلا أن الإنسان يتميز عن الحيوان بقدرته على تمثيل وتحقيق المثل العليا، فلإنسان فردية حيوانية من حيث هو حيوان، وله شخصية سيكولوجية، وهو فرد يعيش في مجتمع إنساني. ويرى البعض أن الوراثة وحدها هي المسؤولة عما يتصف به الإنسان من خصائص يختلف فيها عن غيره من البشر، سواء كانت خصائص جيدة أو خصائص رديئة لأنها

¹ هادي نعمان الهيني، ثقافة الاطفال، عالم المعرفة، الكويت، 1990، ص 145.

منقولة إليه من الآباء والأجداد عبر الأجيال السابقة، وذهبوا في رأيهم إلى ضرورة حصر النسل في بعض الأسر التي يظن أنها عريقة في خصائص أجيالها، وأنها متميزة عن غيرها بخصائص سامية، حرصا على تنقلها عبر أفرادها فقط، وحفظا لها من التدهور بزواجهم من أفراد آخرين ينتمون إلى أسر مغايرة يعتقد أنها أقل منهم في هذه الصفات المتوارثة.

وقد تزعم هذا الاتجاه "ماكدوجال" (M.Dougall) مؤكدا على أهمية الوراثة في تشكيل شخصية الإنسان وتحديد سلوكه، لأنه يولد مزودا بعدد من الغرائز الفسيولوجية المتوارثة، والتي انتقلت إليه من آباءه وأجداده.

ويرى البعض الآخر أن العملية الإضطرادية لظهور النفس تقوم على انسجام الطفل مع الآخرين، وهذا يتضمن أن الإحساس بالنفس لا يظهر إلا عند الشخص الذي يعيش في المجتمع، وإذا كان الأفراد هم الذين يحملون المميزات الثقافية الأساسية وينقلونها من جيل إلى جيل، فليس معنى هذا أن الثقافة هي نتاج شخصية إنسانية واحدة، فالفرد لا يستطيع أن يشترك في جميع عناصر ثقافة المجتمع الذي يعيش فيه، إذ أنه يسهم فقط في أجزاء منها تقوم على أساس ما يحمله من مركز اجتماعي، سواء كان هذا المركز الاجتماعي لا دخل له فيه، كالمركز الذي يحتله الفرد بناء على الجنس أو اللون أو العمر، أو كان هذا المركز بناء على مجهود الشخص.

وعلى ذلك فإن المتغيرات الاجتماعية وحدها، وهي مجموعة المؤثرات أو المدخلات الناتجة عن تفاعل الفرد مع الأفراد الآخرين والجماعات الأخرى تؤثر فيما يتصف به الإنسان من خصائص، وعلى هذا يختلف سلوك الإنسان الذي يعيش في مجتمع عن سلوك إنسان آخر يعيش في مجتمع آخر، وسواء كانت هذه الخصائص جيدة أم رديئة، لأنه اكتسبها من خلال المحيطين به والمخالطين له في البيئة التي يعيش فيها.

فسلوك الفرد في المدينة يختلف عن سلوك الفرد في القرية، وسلوك الفرد في دمشق يختلف عن سلوك الفرد في نيويورك، ويرجع ذلك إلى اختلاف العادات والتقاليد والأنماط الثقافية الأخرى التي تحدد أنماطا معينة من السلوك للأفراد¹.

¹ نفس المرجع ، ص 146.

وقد تزعم هذا الرأي "واطسون" (watson) حيث قال أنه يمكنه أن يشكل شخصية الطفل كما يريد، مما يجعله يمارس الدور الذي أعده له، فقد يجعله في المستقبل عالماً، أو متشرداً وفقاً لما يعلمه له، ولما يدربه عليه، وبناء على ما يتوفر لديه من مصادر في البيئة التي يعيش فيها.

المحاضرة السابعة : مناهج الأنثروبولوجيا الثقافية:

تطور منهج البحث الأنثروبولوجي عبر مرحلتين رئيسيتين هما: المرحلة المكتبية والمرحلة الحقلية. والمرحلة المكتبية بدأت ببداية الأنثروبولوجيا الثقافية في عشرينيات القرن التاسع عشر، حيث كان العلماء يعتمدون في جمع المعلومات على طرق غير مباشرة وعلى مصادر ثانوية، فقد كانوا يجلسون في مقاعدهم الوثيرة في مكاتبهم في أوروبا وأمريكا، ويرسلون في طلب المعلومات إما من المكتبات أو من الرحالة والمبشرين ورجال الاستعمار الغربي في المستعمرات التي كانوا يديرونها، لذا عرفت الأنثروبولوجيا الثقافية في هذه الفترة

بأنثروبولوجيا المقاعد الوثيرة.¹ وقد تمخضت عن هذه الطريقة في جمع البيانات عن المجتمعات البدائية الصغيرة معلومات في معظمها متحيزة وعشوائية وسطحية، فقد جمعت هذه المعلومات بواسطة مجموعات لم تتل قسطاً من الإعداد النظري الذي يوجه الباحث في حقل البحث.

ونسبة إلى هذه السلبيات التي ارتبطت بهذه الطريقة البحثية، فقد اتجه الأنثروبولوجيون منذ مطلع القرن العشرين إلى اعتماد طريقة جديدة في البحث الأنثروبولوجي انتقلت بالمنهج الأنثروبولوجي من المرحلة المكتبية إلى المرحلة الميدانية التي تقوم على طريقة العمل الحقلية. ولقد وضع أسس هذه الطريقة رواد الأنثروبولوجيا الثقافية الحديثة، أمثال "مالينوفسكي" الذي قام بدراسة جزر "التروبرياندا" عام 1914، و"راد كليف براون" الذي قام بدراسة جزر "الأندمان" عام 1906، و"إيفانز بريتشارد" الذي درس قبائل "الزاندي" و"النوير" و"الدينكا" في العشرينيات والثلاثينيات، و"سلجمان" الذي درس قبائل جنوب السودان عام 1909.

¹ حسين عبد الحميد احمد رشوان ، علم الاجتماع النفسي ، شباب الجامعة ، الاسكندرية ، 2006 ، ص 10.

ويقوم العمل الحقلّي على أساس التوجه للعيش المباشر بين المجتمع الذي يراد دراسته لفترة طويلة تمتد بين عام وعامين، والقيام بجمع المعلومات بطريقة مباشرة من أهالي المجتمع، فالباحث يقيم بينهم، ويتعلم لغتهم ويشاركهم جميع أنشطتهم، ومن أهم المعلومات بالنسبة للباحث الحقلّي ما يلي:

*** الملاحظة بالمشاركة:** أي ملاحظة سلوك الأهالي أثناء اشتراك الباحث في الأنشطة الاجتماعيّة المختلفة التي يؤدونها. ويعتمد هذا المنهج البحثي على قبول الباحث من طرف أولئك المراد دراستهم، واعتماده كأنه واحد منهم، مما يتيح له الرؤية من الداخل. كما يحاول الباحث أن يتقمص شخصية الفرد في المجتمع الذي يبحته، وأن ينظر إلى الأشياء بالطريقة التي ينظر بها أهالي المجتمع أنفسهم لهذه الأشياء.

*** المخبرون:** من أهم مصادر البحث الحقلّي المخبرون، وهم عادة كبار السن أو العارفين في المجموعة التي يراد دراستها، ويستفاد من أقوال المخبرين في التالي:

- التأكد من المعلومات التي حصل عليها الباحث بواسطة الملاحظة.
- أخذ معلومات لا يمكنه شخصيا الحصول عليها كالمعلومات عن العلاقة بين الجنسين في المجتمعات المحافظة مثلا.
- أخذ معلومات عن الماضي أو عن أشياء لا تحدث إلا نادرا، وقد لا يتمكن الباحث من حضورها.

*** الطريقة الجينالوجية:** وهي طريقة جمع المعلومات بواسطة سلاسل النسب والقرابة، أو ما يعرف بأشجار النسب، وهي طريقة تجمع بواسطتها معلومات عن القرابة والزواج والسكان وخصائصهم الاجتماعيّة المختلفة، كما يمكن أن تكون مصدرا لشتى أنواع المعلومات الاجتماعيّة حسب طريقة استخدام الباحث لها.

*** عناصر الثقافة المادية وغير المادية:** ويشير هذا المصدر إلى تجميع عناصر الثقافة المادية كأعمال الفنون اليدوية والأدوات وغيرها، والعناصر غير المادية كالشعر والأمثال والأساطير والألغاز وغيرها. وتعتبر كل هذه العناصر من أهم مصادر المعلومات بالنسبة للباحث الحقلّي.

* **التعداد الأسري:** لقد أصبح التعداد الأسري الذي يشمل أفراد الأسرة ونوعهم وعملهم وعلاقتهم وخصائصهم الاجتماعية الأخرى من أهم عناصر البحث الحقلية، كما يتضمن التعداد الأسري أحيانا معلومات عن ميزانية الأسرة دخلها وصرفها، وقد يشمل أيضا معلومات عن الأسرة كوحدة إنتاجية: كيفية تنظيم العمل وتقسيمه وتوزيع الوقت بين جوانب العمل المختلفة.

* **الوثائق والنصوص:** الوثائق متى وجدت تعتبر مصدرا هاما بالنسبة للباحث الأنثروبولوجي، والنصوص تعني ما يكتبه الأهالي أنفسهم عن مواضيع يطلب الباحث رأيهم فيها أو إعطاء معلومات عنها.

المحاضرة الثامنة:

- الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم الاجتماع:

يعتبر علم الاجتماع أكثر العلوم الاجتماعية اقترابا من الأنثروبولوجيا الثقافية وذلك لعدة اعتبارات¹:

1- يعتبر مجال الدراسة لكل من الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم الاجتماع واحد: دراسة المجتمع ككل أي دراسة مجموعة العلاقات والنظم التي تسود في المجتمع وتكون مجتمعة وحدة مترابطة ومتكاملة. أي أن مدخل كل من العلمين لدراسة المجتمع مدخل متشابه: هو الدراسة الكلية أو التكاملية للمجتمع، وبالتالي فهما يختلفان عن العلوم الاجتماعية الأخرى كالاقتصاد والعلوم السياسية، فالإقتصاد يهتم بدراسة النظام الاقتصادي فقط، والعلوم السياسية تهتم بدراسة النظام السياسي فقط، فكل منهما يقطع شريحة واحدة من مجموع العلاقات الاجتماعية ويركز على دراستها، ولا يهتم كثيرا بالعلاقة التي تربط هذه الشريحة بسائر الشرائح الأخرى في المجتمع، بينما الوصول إلى هذه العلاقات التكاملية هو من أهم اهتمامات علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الثقافية.

2- كذلك يتفق علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الثقافية في الاهتمام بالحاضر وماضي المجتمعات الإنسانية (وإن كان التركيز على الحاضر في كل منهما) ، ويختلفان

¹ نفس المرجع ، نفس الصفحة .

بالتالي عن علم التاريخ والذي هو علم دراسة الماضي. كذلك يختلفان عن التاريخ في أنهما يهتمان بعمومية الظواهر الاجتماعية، بينما غاية التاريخ هو تناول الظواهر الاجتماعية، كأحداث معينة وخاصة.

3- كذلك يتفق كل من علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الثقافية في أنهما يدرسان المجتمع كما هو، وليس كما ينبغي أن يكون وليس معنى ذلك أنهما لا يهتمان بإصلاح المجتمع أو تطويره، بل يعني أنهما يدرسان المجتمع دراسة مجردة عن القيم المسبقة والأحكام المثالية وبالتالي يعتمدان الموضوعية في الدراسة، ولهذا يختلف علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الثقافية عن علم الأخلاق أو فلسفة الأخلاق والتي تدرس السلوك الإنساني كما ينبغي أن يكون.

وبالرغم من المجالات العديدة التي يتفق فيها كل من علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الثقافية فهناك اختلاف نسبي بين العلمين، وإن كان هذا الاختلاف بدأ يزول تدريجيا اليوم. هذا الاختلاف النسبي يتمثل في أن الاهتمام الأكبر للأنثروبولوجيا الثقافية ينصب على الدراسة العقلية للمجتمعات الصغيرة، والتي كانت تسمى بالمجتمعات البدائية، بينما الاهتمام الأكبر لعلم الاجتماع ينصب على المجتمعات الكبيرة، وهي المجتمعات الصناعية والحضرية. في هذا السياق يقول عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي "مانتشب وايت" (M.White) إن في استخدامنا لتعبير علم الإنسان، لا نقصد دراسة الإنسان بقدر ما نقصد دراسة الإنسان البدائي، وهذا يعني دراسة المجتمعات الفطرية أو التي لازالت أقرب إلى الفطرة، وذلك لأن دراسة الإنسان المتطور المعقد لمجتمعاتنا المتطورة أو المتحضرة ليست من مهمة عالم الإنسان، بل من مهمة عالم الاجتماع. وتؤكد هذا المعنى محاضرة "جيمس فريزر" الموسومة " مجال الأنثروبولوجيا"، والتي يقول فيها: "أعتقد أنه من الأوفق أن نميز بين علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية، فنطلق التسمية الأولى على دراسة المجتمعات الإنسانية بأوسع معاني هذه الكلمة، ثم نقصر الأنثروبولوجيا على قطاع خاص من هذا الحقل الفسيح الأرجاء، وعلى ذلك يكون مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية محصورا في دراسة الأشكال الأولية البسيطة للمجتمعات الإنسانية، وفي المراحل البدائية من تطورها فهي لا تشمل إذن دراسة المراحل الأكثر تطورا وتركيبا في نمو المجتمعات."

¹ويدعم "إيفانز بريشارد" (E.Pritchard) هذا الرأي في كتابه "الأنثروبولوجيا الاجتماعية" حيث يقول: "أنه يمكن النظر إلى هذه الدراسة على أنها فرع من الدراسة الاجتماعية يهدف على وجه الخصوص إلى دراسة الشعوب البدائية. والاختلاف بين المجتمع الصغير والمجتمع الكبير اختلاف نسبي أيضا، فالمجتمع الصغير يتميز بعدد قليل من السكان، كما يتميز بدرجة بسيطة من التخصص (فمعظم أفراد المجتمع يقومون بعمل واحد أو متشابه كالرعي أو الزراعة مثلا)، وبسيادة العلاقات غير الرسمية المباشرة، أما المجتمع الكبير فيتميز بعدد كبير من السكان، يقيمون في رقعة كبيرة من الأرض نسبيا، ويقومون بوظائف وأعباء متخصصة، وتسود بينهم العلاقات الرسمية غير المباشرة. ويميز "دوركايم" بين المجتمع الكبير والمجتمع الصغير على أساس نوعية التضامن أو التماسك في كل منهما. فالمجتمع الصغير يتسم بتضامن آلي أو ميكانيكي، وهو التضامن الذي يستمد من خاصية التشابه عند أفراد المجتمع (تشابه في العمل والمكانة الاجتماعية والسلوك والاتجاهات والقيم)، بينما يتسم المجتمع الكبير بتضامن عضوي وهو التضامن الذي يستمد من خاصية التخصص عند أفراد المجموعة (تخصص في العمل وتنوع في السلوك والاتجاهات)، والتي تحتم بالضرورة احتياج أفراد المجموعة لبعضهم البعض لانتقاء عامل الاكتفاء الذاتي للفرد.

كذلك تختلف نوعية التكنولوجيا في كل من المجتمع الصغير والكبير، ففي الأول تكون التكنولوجيا تقليدية بسيطة، مصدر الطاقة فيها هو الإنسان أو الحيوان، أما في الثاني فهي تكنولوجيا حديثة معقدة مصدر الطاقة فيها غير الإنسان أو الحيوان (كالوقود والذرة والشمس وخلافها).

ويتبع هذا الاختلاف النسبي في نوعية المجتمع الذي يدرسه كل من علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الثقافية اختلاف في منهج البحث عند كل منهما، فالأنثروبولوجيا بحكم تركيزها على المجتمع الصغير تعتمد منهج الدراسة الحقلية المباشرة التي تقوم على مبدأ المعاشة الطويلة، والمكثفة للمجتمع المعني، وأخذ المعلومات عن هذا المجتمع عن طريق الملاحظة بالمشاركة، أي ملاحظة ما يقوم به أهالي المجتمع من أنشطة مختلفة وما

¹ نفس المرجع ، ص 48.

يعكسونه من سلوك أثناء تأدية هذه الأنشطة، مع الالتزام بمبدأ المشاركة الفعلية في هذه الأنشطة من قبل الباحث، ويستطيع الباحث الاجتماعي أن يعمم ما يستنتجه من ملاحظات عن هذا المجتمع بحكم التشابه والتجانس بين أفراد المجتمع. أما في حالة المجتمع الكبير فلا يستطيع الباحث الاجتماعي أن يعمم أي استنتاج من ملاحظة السلوك لأفراد معينين أو نشاط محدد نسبة لكبر حجم هذا المجتمع وتنوع أنشطته، واختلاف أفراده وعدم التجانس بينهم، وبالتالي كان اعتماد علماء الاجتماع على منهج الإحصائيات والمقابلات والاستبيانات.

إن هذا الاختلاف النسبي بين علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الثقافية بدأ يزول نسبياً نظراً لكون المجتمعات الصغيرة التي يركز على دراستها علماء الأنثروبولوجيا الثقافية بدأت تنمو وتتعدّد نسبياً تبعاً لزوال العزلة النسبية التي كانت تتميز بها هذه المجتمعات، وانخراطها في دائرة المجتمع القومي الكبير الذي تنتمي إليه لعوامل سياسية واقتصادية مختلفة. ولقد بدأت الأنثروبولوجيا الثقافية تهتم اهتماماً كبيراً بهذه المجتمعات النامية ودراسة ظاهرة نموها واتجاهاته ومؤثراته، مما أدى إلى قيام فرع هام من علم الاجتماع يعرف بعلم الاجتماع الإنمائي، ولقد أخذ هذا العلم الحديث ينمو بمجهودات مشتركة بين علماء الأنثروبولوجيا الثقافية وعلماء الاجتماع، وهو يمثل نقطة الالتقاء بين العلمين، إذ أن المجتمع النامي هو مجتمع صغير يتخذ تدريجياً شكل المجتمع المعقد، وبالتالي فهو وجهة اهتمام العلمين.

وهنا لا بد أن نشير إلى أن اتجاه الأنثروبولوجيا الثقافية للدراسة الميدانية للمجتمعات الصغيرة لا يمثل غاية نهائية ولكن وسيلة لفهم المجتمعات الكبيرة، ولفهم المجتمع الإنساني في شتى صورته وأشكاله، فالأنثروبولوجيا الثقافية ترمي أساساً إلى إخضاع النظريات الاجتماعية التي انبثقت من دراسة المجتمعات الكبيرة إلى المعلومات والحقائق التي تستمد من دائرة المجتمعات الصغيرة، وبالتالي يمكن التحقق من صحة النظرية وثباتها أو من قصورها وفشلها، ويمكن تبعاً لذلك قبولها أو رفضها أو تعديلها. والهدف النهائي وراء كل ذلك هو الوصول إلى مفاهيم نظرية تصف التجربة الإنسانية كلها ولا تقتصر على وصف التجربة الغربية كما هو الحال بالنسبة لمعظم المفاهيم التي كونها علم الاجتماع، وهذا ما

يفسر موقف "راد كليف براون" عندما عرف الأنثروبولوجيا الاجتماعية(*) منذ مدة طويلة بأنها علم الاجتماع المقارن، وكذلك موقف "محمد عبده محجوب" عندما طالب بأن يطلق على الدراسات السوسيولوجية والأنثروبولوجية الاجتماعية كمبحثين تقليديين في دراسة المجتمع "مصطلح الدراسة السوسيوأنثروبولوجية" تجاوزا لتلك القسمة الثنائية القائمة بين العلمين في وقت أصبح التقارب بينهما في الموضوع وطرق البحث واتجاهات التحليل حقيقة ناصعة.¹

(*) – درج علماء الأنثروبولوجيا في بريطانيا على تسمية هذا النوع من الدراسات بالأنثروبولوجيا الاجتماعية، خلافا للمدرسة الأمريكية التي تطلق عليها اصطلاح الأنثروبولوجيا الثقافية، معتبرة الأنثروبولوجيا الاجتماعية فرعا منها.¹ محمد عبد الحميد محجوب ، مرجع سابق ، ص 97.